الطبعة الثانية

مدينة الغرباء

مطالع نيويوركية

جمال الغيطاني

دار نهضة مصر للنشر

مدينة الغرباء

مطالع نيويوركية

تأليف
جمال الغيطاني

العنوان:
مدينة الغرباء
مطالع نيويوركية

تأليف:
جمال الغيطاني

الغلاف واللوحات الداخلية:
للفنان إدوارد هوبر

إشراف عام:
داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 977-14-2002-x
رقم الإيداع: 10893 / 2010
الطبعة الثانية: يناير 2012

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938
21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

إلى محمد وماجدة

لسعيهما الذي سوف يُرى

سـفـر...

اثنتا عشرة ساعة، عبور مكاتب الجوازات، العديد من أصدقائه يتصلون به، اتجهنا إلى قاعة انتظار الدرجة الأولى ورجال الأعمال التي سيسافر عليها، التليفزيون مفتوح باستمرار، سيدة متقدمة في العمر، لا أدري لماذا كنت واثقًا من معرفة قديمة بها، رجل يرتدي الزي الخليجي، بارز الكرش بشكل لافت للنظر، ما بين اتصالات محمد المتعددة، وحديث متقطع، وتأمل للعابرين، ومتابعة للأخبار انقضى الوقت، ستقلع الطائرة في موعدها، العاشرة والربع.

أخيرًا نودي علينا..

عند بوابة الرحيل الأخيرة توقفت، بعدها يتجه مباشرة إلى الطائرة، معظم الركاب صعدوا إلى الطائرة، خلع محمد الحزام، والساعة، وضع الهاتف المحمول والحزام في صندوق صغير سيدخل ماكينة الأشعة الكاشفة.

يجتاز الباب بعد أن عانقته، ينحني محاولاً تقبيل يدي، أقبل رأسه، ذلك ملمس شعره، بعد اجتيازه البوابة يتوقف قليلاً، يلوح لي، يتجه إلى الممر المؤدي للطائرة، يتوقف عند منتصفه، يلوح، يبدو أن أحدهم هاتفه، يرفع المحمول، يتجه إلى الطائرة.

ربما تساءل ضابط الشرطة الواقف بجوار البوابة عن تطلعي وتحديقي، عن ثبات نظري في اتجاهه، محاولاً استيعاب اللحظة، متسائلًا عن اللحظة الأخرى الكامنة في المجهول والتي سأراه فيها مرة أخرى..

الجمعة

رغم ساعتي الداخلية التي لا تخطئ بسبب ستين عامًا أمضيتها في الالتزام، مواعيد العمل، مواعيد الأصدقاء، مواعيد عملي الخاص، حتى بعد تحرري من مواعيد الحضور والانصراف، الدقيقة التي كنت أحرص عليها خشية خصم اليوم، أولًا من إجازتي وثانيًا من مرتبي، فإنني أكثر التزامًا بالمواعيد التي حددتها لنفسي حتى ينتظم مساري، النهار للعمل والمساء للأدب، رغم التوقيت الداخلي الذي يجعلني أستيقظ في الموعد عينه، فإنني أبادر إلى النظر في الساعة التي أحرص على وضعها إلى جواري، في متناول يدي، إذا ما وجدت الوقت مبكرًا، أي أنني استيقظت قبل توقيتي بعشر أو عشرين دقيقة، فإنني أغمض عيني مرتاحًا إلى هذا الوقت الذي سأمضيه في الفراش، دائمًا ما يفصل بيني وبين استيقاظي وقت محدود جدًّا لا يتاح لي فيه التأمل، استعادة ما رأيناه في المنام، تلك الوجوه الغريبة التي تفد علينا، وتلك الأحداث التي لا يربطها منطق، فستعرض ما ينتظرنا خلال النهار، بعض الأحداث الصغيرة التي تثير بهجتنا تحدد مذاقًا ولونًا لليوم، موعد مع صديق حميم، ارتباط مع من نرتاح إليهم، وربما يمضي الأمر في الاتجاه المعاكس، لم أعرف متعة النوم إلى الحد الذي أشعر معه بالراحة طوال عمري، المدرسة، طابور الصباح، ثم بدء العمل في سن مبكرة، الحضور والانصراف، منذ عام أربعة وسبعين، حتى الخامس والثمانين من القرن الماضي، كانت علاقتي بالعمل قلقة، كانت صلتي بالمرحوم موسى صبري حميمة، ولكن الظروف العامة كانت أكبر منه ومني، كنت أسكن حلوان، أقطع المسافة يوميًّا لأكون في التاسعة صباحًا أمام ساعة الحضور، أوقع ثم أواجه الفراغ، لا عمل محدد، لا التزام، كنت عضوًا في قسم أنشئ ليكون بمثابة جراج لغير المرضيِّ عنهم، كان قسم الدراسات يضم مصطفى طيبة، وعادل حسين،

وجمال بدوي، وجمال الشرقاوي، قلت للمرحوم موسى صبري إنني أقطع مسافة طويلة لأوقع فقط في دفتر الحضور، فهل من الممكن إعفائي من هذا الإجراء السخيف الذي يبدو لي عبثيًّا، إلا أنه كان صارمًا فيما يتعلق بتنظيم العمل، كان التوقيع في الساعة تقليدًا صميمًا في دار أخبار اليوم، مازلت أذكر دخول المرحوم مصطفى أمين، يتجه مباشرة إلى الساعة، يوقع حضورًا، وعند الخروج يوقع انصرافًا، لم يكن مطلوبًا منه ذلك، لكنه كان يعطي الآخرين درسًا، كنت أسمع عن آخرين ينتسبون إلى الدار، لا يجيئون ولا يظهرون بل إن بعضهم لا يأتي حتى لقبض مرتبه في أول الشهر، فقد حوله إلى البنك، وكنت أتساءل، إذا كنت لا أكلف بعمل محدد فلماذا لا أكون مثلهم، عندئذ يصبح وقتي كله للأدب، لم يحدث هذا قط، وعندما أتيح لي ألا أوقع في الحضور، الحضور خاصة، أصبحت أكثر التزامًا.

أتطلع إلى الساعة، تمام، تمام، نفس التوقيت، أتوقف عند تاريخ اليوم، طوال الأسابيع الماضية أتطلع إلى اليوم، إلى الشهر، ويغمرني هذا الحال المستجد.

يوليـــو 21، 22، 23، 24

في اليوم الواحد والثلاثين منه ستقلع الطائرة المصرية صوب نيويورك في تمام العاشرة صباحًا، نرى الطائرات تطير، والقطارات تسعى، والسفن ترحل، نرى ركابها في المجموع، لكننا لا نتوقف عند دافع كل منهم للترحال، للسفر، أجاور الركاب، لا أفكر في محاورتهم أو التعرف إليهم، كثيرًا ما تكون أسفاري فرصة لخلوي بذاتي، للترحال داخلي، كما أن وسائل السفر الحديثة لا تتخللها تلك الحميمية التي كانت تسري في الماضي عبر الانتقال بالقطارات، في أحد أيام الأربعينيات أنشد محمد عبدالوهاب..

لو طال الوقت على الركاب
يقضوا الوقت في كلام وعتاب
بعـد شـــوية يبقـــوا احباب

لم يعد ذلك قائمًا الآن، أحيانًا أسافر أماكن قصية بالطائرة، لا أعرف شيئًا عن جاري، بل قد يبدر منه ما يعني الصد، وقد يصدر ذلك عني، أحيانًا يقع الحوار، نتبادل العناوين، البطاقات، لا أذكر أنني سعيت مرة إلى الاتصال برفيق سفر، ولم يتفق هذا معي أيضًا من أي منهم.

سيرى ركاب هذه الرحلة ذلك الشاب، طويل القامة، مصري الملامح، ربما يتحدث إلى بعضهم، ربما تبقى ملامحه في ذاكرة عدد منهم، لن يعرف أحد أنه ابني، ابني البكري، الوحيد، وأنه يسافر ليبدأ مرحلة جديدة في حياته، صحيح أنه سافر مرات عديدة من قبل، لكنها فترات قصيرة يعود بعدها إلى سياق حياتنا معًا، لكن في هذه المرة سيمضي أربع سنوات، سنصبح نحن الاستثناء، فلن نراه إلا في الإجازات، عندما يجيء إلى القاهرة مرة في العام لأسبوعين في العام، أو نذهب إليه لعدة أيام، سيحل علينا ضيفًا بعد أن كان مقيمًا، وسنحل عليه ضيوفًا، ستصبح الأطراف المؤتلفة عمرًا عابرًا كل منها للآخر.

أعرف ذلك، تعرف أمه ذلك، تعرف شقيقته ذلك منذ ثلاثة أعوام عندما اختار عمله هذا الذي أعد له العُدة منذ زمن طويل، لكن خلال الرحلة تستغرقنا التفاصيل اليومية عن نقطة البلوغ، فجأة نجد أنفسنا نتأهب للوصول، للبلوغ، للحلول في تلك اللحظة الفارقة التي لن يكون ما قبلها فيما يليها، سينشأ وضع آخر، في مضمونه أفضل لكنه ليس ذلك الذي عرفناه، عشناه معًا، المؤكد أن ما كان لن يكون..

يوليـــو 25، 26، 27، 28...

تجيش الروح بالكثير، الصعب هو التوفيق بين ما تستثيره الفترة من أشجان رهيفة، وما يجب أن تظهره من مسرة وابتهاج، أحيانًا تملي علينا الظروف التواري من مشاعرنا الحقيقية في مواجهة الآخرين، خاصة إذا كانوا من ذوي القربى، أعرف أنه يمر بما نمر به، تفلت منه عبارات دالة، كقوله إن أصعب ليلة عنده ليلة السفر.

أحذر أمه من إبداء أي تضعضع يمكن أن يثير كوامنه، أقول هذا وأنا أتبسبس من داخلي وأجاهد الكتمان، تبتسم ماجدة، تقول إنها لحظة طالما تمنتها، إنها فخورة، تياهة به، أن يبدأ حياته العملية في منظمة دولية مرموقة، تصمت لحظة ثم تقول «لكنني أعرف أن ما كان لن يكون..».

يوليـــو 29، 30...

بعد واحد وأربعين عامًا أدرك معنى تلك النظرة التي لمحتها في عيني أبي ذات يوم من عام خمسة وستين، وإن كنت أرانا في ملابس صيفية، إذن كان الوقت صيفًا، يقف أبي فوق رصيف المحطة، أجلس إلى جوار النافذة، الدرجة الثانية في إحدى عربات المجري، القطار الحديث وقتئذ، نتبادل الصمت بالنظر، يتطلع إليَّ، تحتويني عيناه، لكنني أحيد، يرفض الانصراف، كنت أتجه جنوبًا لتنفيذ أمر النقل الذي صدر فجأة، وجب عليَّ التنفيذ خلال ثمان وأربعين ساعة، إلى المنيا، منذ أن التحقت بمؤسسة التعاون الإنتاجي أسافر بانتظام للتفتيش على مصانع السجاد في المدن والقرى، في أول مرة جئت إلى موقف حافلات الأقاليم كانت المهمة إلى كفر الشيخ، أصرَّ على أن يصحبني، وعندما تحرك الأوتوبيس فوجئت أنه يجري بجواره وكأنه يأبى أن يفارقني، غير أن سفري هذا وجل أسفاري كانت مؤقتة، أرحل لأيام وأرجع، في هذه المرة يختلف الأمر، إنني منقول، والنقل أمر

ظل أبي يخشاه طوال عمله، إذ كان يصدر كعقاب وليس لضرورة، ينطبق هذا على نقلي هذا، أما الأسباب فقد شرحتها في مواضع أخرى مما دونته، لحظتان سدد أبي إليّ النظر الغامض، الغريب، ولم أدرك إلا بعد فوات الأوان، غريب أمرنا، إذ تستعصي أشياء علينا في لحظتها، ثم تنكشف لنا أبعادها بعد انقضاء المواقيت، بل بعد مرور حقب كاملة، لكنه منطق الدوائر، فبعضها يتصل بسرعة، ومنها ما يستغرق دهورًا، إدراك المعنى نوع من انغلاق الدائرة، من تمامها، من اكتمالها، وفي هذا كله وقف للترحال، وانتفاء للحيرة مع التمام.

بعد واحد وأربعين عامًا سأقف الموقف عينه مع تغاير المضمون، مع اختلاف التفصيل، سأتطلع إلى محمد بنفس العينين، بنفس النظرة الطويلة، المرسالة، الفياضة، العصية على الإدراك، لأنها تخفي ما يستعصي ولا تبوح إلا بالمتاح الهين.

سأتطلع وأتملى وأحاول الاحتفاظ بكافة التفاصيل التي ستصبح زادي، وسأندم على أوقات كان يمكن أن أقضيها معه ولم أفعل، وعلى أزمنة أمضيتها بعيدًا عنه في وقت كان في حاجة خلالها إليَّ ولم ألبَّ، وسيعتصرني الندم لذنوب لا أقدر على تحديدها وأمور يصعب شرحها، أوقن أن قدري الإقامة دائمًا في الفوت، الفوت.

الأحـد

30 يوليـو

«حتيجي تزورني يا بابا؟».

أتطلع إليه منخلع الحال، متبدلًا في وضعي، كأني كنت نائيًا فاقتربت، أو قصيًا فحللت، أنتبه إلى المتبقي، أقل من أربع وعشرين ساعة، غدًا، في مثل

هذا الوقت سيكون في مكان ما فوق البحر الأبيض، مكان متحرك بسرعة تقارب الألف كيلو مترًا، متجهًا غربًا.

أزوره؟

يحل زمن التزاور بيننا، أحل عليه ضيفًا، ينتظرني في المطار، يهيئ مكانًا لي في البيت الذي لا نعرف عنوانه حتى الآن، أي مكان؟

علام تطل الشرفة أو النافذة؟

أي طريق وما شكل المفتاح، المصعد أو السلم؟

يبدي اهتمامًا، يصحبني إلى المتاحف، كأني أفاجأ بحقائق العيش الذي امتد بي وظننت أنني خبرته، فإذا بي في مواجهة ما لم أكن أعرفه، طوال عيشنا معًا، لم تحل تلك الاستثنائية، أدرك أن اكتمال المعنى في عادية الوقائع، في استمراريتها بدون تبدل، بدون خروج عن سياقٍ اعتدناه، بدا مستقرًا، دائمًا وها هو يوشك على الحيدة.

لا ننتبه، لا نفيق إلى قيمة اللحيظات التي تبدو لنا عادية وربما نضيق أحيانًا بما حوت إلا مع انقضاء مسارها، وصوله إلى نقطة فارقة، ينتهي عندها شيء ويبدأ شيء، تتم بنية وتبدأ أخرى، آه لو ندرك قيمة ما نحياه في حينه..

آه لو ندرك!!

رغم أننا نعيش تحت سقف واحد، فإن أيامًا معدودات تمر بدون أن نلتقي، أخرج وهو نائم، يخرج وأنا غائب، أستدل على عودته بصوت إغلاق الباب، كذا خروجه، أطمئن، فأغمض عيني وأواصل، إما الانهماك وإما الإغفاء.

مع كل الأحوال أعرف أننا هنا، مهما تقاطعت أحوالنا، سنلتقي في لحظة، حتى عند سفره، غيابه أيامًا أو حتى أسابيع، فإنه هنا، مكانه متأهب لاستقباله، سريره مرتب أو غير في متناول بصري، حاجياته كذلك، كتبه،

حاسبه الآلي، صوان ملابسه، أحذيته العادية والرياضية، هذا يعني رؤيتي له عند توقيت محدد، يسافر ويرجع، يغيب ويعود، البيت قاعدته، مرتكزه، منه يبدأ وإليه يعود، البيت الآن استثناء، وقته الأطول سيمضيه هناك، حضوره سيصبح إجازة، يتحول الوقت الذي كان أساسيًّا إلى استثنائي، سيجيئني ضيفًا، وسأحل عليه ضيفًا..

30 يوليـــو:

مســاءً

هل أغضبته يومًا؟

أنقب في ذاكرتي عن تلك اللحظات التي ضقت فيها به، أو أبديت الجفوة لأسباب أخرى لم أطقها، فاستبدلت الأمر بزعيق أو زجر.

ضربته مرة، صفعته مرة.. مرة واحدة، لكن ما يشفع لي عندي أنها نتاج خشية عليه.

يقف في صالة البيت، يمد يده إلى قابس الكهرباء، يزحزحه من مكانه، يخرجه قليلاً، أنتبه، يوشك على ملامسة الطرفين المعدنيين، بينما يتدفق الصعق، دفعته بعيدًا، زعقت في وجهه متسائلاً عما يفعل. أتبعت ذلك بصفعة، الغريب أنه لم يبك، لم يصرخ، إنما تطلع إليّ بعينيه الفسيحتين، كلها تساؤل: لماذا، لماذا؟

فيما تلا ذلك وتبعه من أيام وليال وأزمنة قصار أو طوال أدركت أنه يتلقى فيكتم، لا يبدي رد الفعل مباشرة، وهذا عين ما عليه أمري، وما كلفني من أمري نصبًا طوال حياتي.

هل يتذكر الصفعة الآن؟

هل ترد على خاطره؟

كيف يستعيدها؟ كيف يتمثلها؟

لعلها لم تؤذه بقدر ما آلمه صمتي، عندما كنت أعاقبه بأن أولي عنه، عندئذ يلمسني، ينطق راجيًا:

«طيب حقك عليَّ..».

إذ أمضي، يلجأ إلى ركن الغرفة، عندما تظهر ماجدة، يبدي ألمًا، يشكو، أختلس النظر لأستوثق، هل يتوجع فعلاً، أم أنه يستثير حالي من أجل استبدال قسوة بحنو.

الآن بعد حوالي ثلاثة عقود ألوم نفسي، لماذا قسوت عليه؟

لماذا لم أصحبه عندما دعاني لنخرج معًا؟

لماذا لم أتحدث إليه طويلاً؟

لماذا لم أستجب لمحاولاته التقرب مني؟

هل قدري معاناة ما يترتب على الفوت؟

عندما يصبح العادي مستحيلاً، عندما يصير ما اعتدناه وظننا أنه باق أبدًا لن يمسه تغيير نائيًا، قصيًّا، تمضي أيامنا بتفاصيل الحياة العادية، لا ننتبه إلى تراكم المتغيرات، تمامًا مثل دوران الأرض حول نفسها، هل نشعر بها؟

بالطبع لا ندرك ذلك إلا من خلال الأعراض، توالي الشروق والغروب، استمرار الحركة التي تبدو لنا عادية، لكنها تحملنا معها، تلفنا، تطوينا طيًّا، حتى إذا حان الحين نندم على ما فرطنا فيه.

هذا بالضبط حالي مع توالي الساعات واقترابها من اللحظة الفارقة، التي لن يكون بعدها ما كان، حتى وإن تبدلت الأوضاع إلى الأفضل على المستوى الفردي.

الحقـائـــب

أربـــع..

أحجام متقاربة، قبل شهر تقريبًا لم يلحظ أحد وجودها، كل منها في ناحية، مع اقتراب الموعد ظهرت، اثنتان في حجرته، الأخريان في غرفة المعيشة، ثم اصطف الأربعة في الممر المؤدي إلى غرف النوم، تعني الحقائب عندي أمورًا أعرفها، وأخرى لا يمكنني تحديدها، في كل حقيبة نثار حياة، بقايا وجود، فمن المستحيل وضع كل شيء في حقيبة واحدة، تلك الشظايا تدل وتفضي، الحقيبة سر بالنسبة لمن لا يعرفها، مغلقة، لا تبوح بما فيها، ما زلت أذكر شخصًا وقورًا كان يتردد على مقهى اعتدنا ارتياده في وسط المدينة، حقيبة لا تفارقه، إذا جلس يضعها فوق مقعد إلى جواره،وإذا شغلت المقاعد يسندها إلى الجدار بجواره، يتطلع إليها بين الحين والحين، في أحد الأيام وقف متأهبًا للانصراف، يبدو أنه نسي إغلاقها، انفتحت فتناثرت محتوياتها على أرضية المقهى، تطلع حوله مذعورًا، راح يلملم أقراص الدواء، وحافظة الأوراق وبقايا ساندويتش، بعدها لم أره قط، اختفى تمامًا، غاب خبره عني.

ما من مرة أسافر فيها إلا وأتطلع إلى حقيبتي بعد أن يتم وزنها وتمضي فوق السير المتحرك، كأنني أودع كائنًا عزيزًا يمت إليَّ بوثيق الصلة، ها هي حقائب ابني تظهر في الممر، مصطفة، متخذة الوضع الطولي، ما تزال فارغة، ليس هذا سفرًا عاديًا، سيمضي من حياته عدة سنوات هناك على الطرف الآخر من المحيط.

تقول ماجدة إنها ستعدها، سترتب حاجاته وفقًا لنظام خاص حتى يسهل عليه التعامل معها، خاصة أنه لم يتجه من المطار إلى سكن يخصه، إنما سيمضي وقتًا يبحث خلاله عن مقر لإقامته، سيمضي أسبوعًا أو أسبوعين في فندق، مقر إقامة مؤقت حتى يستقر، خلال الأيام السبعة السابقة على السفر،

اعتدت حركتها في البيت، ما بين حجرته والحقيبة الأولى، التي وضعتها وسط الحجرة التي نشاهد فيها التليفزيون، ونتناول أحيانًا طعامنا، قالت إن الحقيبة الأولى ستحتوي على ما يحتاج إليه لمدة أسبوعين، إنها ملخص الأخريات بحيث لن يضطر إلى فتحها كلها، جزء من ملابسه الداخلية، كلها جيدة لم تفض، القطن المصري جيد، رخيص هنا، كل ما يصحبه جديد، جوارب، قمصان، حلل، قعدت إلى جوار الحقيبة المفتوحة، تعد أربطة العنق، تلف كلاً منها بعناية، ثم تضعها في كيس من البلاستيك الخفيف، ترص الجميع في صندوق من الورق المقوى، قالت إن ذلك يقي النسيج الرهيف أي تغضُّن.

لن يفارقني أبدًا جلوسها الهادئ، حركتها المتمهلة لإعداد الثياب والأغراض الأخرى، إلى جوارها دفتر صغير دونت به ما يجب أن يوضع، وما ينبغي أن يصحبه، كلما فرغت من شيء تضع علامة صح أمامه، في دفتر آخر تكتب محتويات الحقيبة حتى يعرف ما بداخل كل واحدة. كنت أختلس النظر إليها عند مروري أمام الغرفة، أو أثناء جلوسي بالقرب منها، أتابع ما تبثه الفضائيات، انحناءتها، قعدتها، حركة أصابعها عندما تمسك بالأشياء، إنما تنحني على وجودها نفسه، تعانق زمنها، ما مضى منه وما سيكون، تخفي أمورًا، رجوتها ألا تذرف دمعًا، فهذا غير مستحب عند سفر الأقربين، ورحت أقول معاني عدة، فابننا يمضي إلى عمل مرموق، لا يغادر مضطرًا، إنما يمضي إلى حيث تمنى تحقق ذاته، وطوال سنوات بذل جهدًا مضنيًا وها هو يدنو فلنا البهجة، تتطلع إليَّ بعينيها الفسيحتين، كأنها تقول لي: لن تدرك.

أعرف أنه ما من إمكانية لسبر أغوار الأم، صحيح أنني أتهدهد، يدرك الألم رقائق لم يمسسها من قبل، غير أنني لا أفصح، يغلب عليَّ البهت لسرعة مرور الوقت، أعبر الممر إلى الغرفة.

ماجدة تقعد أمام الحقيبة الأولى، مغلقة تمامًا، تنحني، تقبلها..

31 فجـرًا:

نوم قصير لم يستمر إلا ساعتين، كما توقعت، ظلوا مستيقظين، يتبادلون النجوى، في السابعة إلا خمس دقائق تحركت العربتان باتجاه المطار، في الأولى ماجدة وماجي ومحمد، في الثانية الحقائب، جلست بجوار صلاح السائق، حركة الصباح الباكر، كنت قلقًا، تأخرنا حوالي ربع ساعة، أحاول تحييد نفسي، كأني أرقب أمورًا تخص شخصًا آخر. هكذا رحت أمعن في الحال، خاصة عند اقترابنا من المطار، تحدثت إلى الشرطي المكلف باستخراج التصريح الخاص بي ومصاحبتي، جرى ذلك بعد اتصالي بزميلي القديم أسامة شلش، مسئول المطار في الأخبار، هو أيضًا جاري في السكن، تحدث أيضًا إلى مدير المحطات.

توقفت السيارتان، نزلت متجهًا إلى أمين الشرطة الذي كان ينتظرني، أحضر صلاح عربة للحقائب، أربع، كل منها كبيرة الحجم، خامسة صغيرة، خاصة بالكتب، نزلت ماجدة باكية، عيناها تدمعان رغم كافة تحذيراتي، ولجوئي إلى كافة الوسائل بما فيها الحديث عن التفاؤل والتشاؤم، وما يجب أن يتذكره عن لحظات المطار التي ستصبح بمثابة الحد الواضح الذي تسبقه أو تتبعه شتى اللحظات عبر الذاكرة، يبدو أننا نحن الرجال مهما بلغت رهافة مشاعرنا لن نقدر أبدًا ما تعنيه الأمومة، مازلت أذكر عبارتها الدالة التي لفظتها بما يشبه الهمس:

«لن تعود حياتنا كما كانت».

أحاول تجاوز تلك اللحيظات، أنبه إلى ضرورة دخولنا حرصًا على الوقت، أخيرًا.. أصحب (محمد) إلى داخل المطار، يمضي أمين الشرطة لإحضار التصريح، نعبر بوابات الرحيل، نتجه إلى المكان المخصص لتسجيل الركاب، كنت مزودًا باسم «مرحل الطائرة» تعبير لأول مرة أسمعه، قوبلنا

بترحيب، تحت الإجراءات التي أصبحت بالنسبة لي مكررة، لكنني هذه المرة لست المسافر، إنما هو ابني، سفر غير كل الأسفار.

وزن الحقائب، دفع فروق الوزن الزائد، اختيار المقعد الملائم لرحلة طويلة.

30 ليـــلاً:

لم يتبق إلا ساعات ويقلع، منذ عامين أعرف أنه سوف يسافر ليبدأ مرحلة جديدة من عمله، تبدو مدة عامين طويلة لمن يتطلع إليها في بدايتها.

ياه، ما زال الوقت طويلاً، باق عامان..!

غير أن تحديد المدة، أي مدة يعني بدء نفاد الرصيد، ينسل شيئًا فشيئًا، يومًا بعد يوم، حتى تقترب اللحظة التي نعرفها، وندرك حلولها قبل مدة، لكن مع الدنو تنتابنا دهشة، نستعيد ما كان، نحاول أن نتخيل ما سيكون، طوال الأسابيع السابقة على صباح الغد، تنتابني حالة راكب القطار الذي قطع مسافة طويلة، نبهه البعض إلى اقتراب محطة النزول، أو أدرك هو ذلك، عندئذ يبدأ إعداد حاله للانتقال من وضع إلى وضع، هكذا صار أمري في كافة تفاصيل يومي، عند ذهابي، عودتي، استقبالي ضيوفًا، جلوسي إلى مقهى، زيارتي الأسبوعية للحي القديم، للمكتبات، عند تناولي الطعام، تأهبي للنوم، عند استيقاظي، ينتابني ذلك الشعور السابق على الانتقال، على العبور، على تغير الحال، منبع الوعي ليس سفر محمد فقط، إنما سفر ماجي أيضًا، ستتبعه بعد شهر لتقضي سنة في لندن، تعد خلالها رسالة ماجستير علمية، هكذا نعود إلى ما بدأناه، بدأنا اثنين، صرنا إلى أربعة، يتخذ كل منهما طريقه في الحياة سربًا.

هكذا تنقضي المدة.

لماذا المدة؟

أليس هكذا تنقضي الحياة، بل دورة الفلك؟

نرجئ ثم نرجئ وفجأة نباغت.

الليلة سنخرج معًا، منذ أن خرج في الصباح لم يعد حتى الآن، الساعة التاسعة، طوال الأيام الماضية نلتقي بسرعة، في الصباح يمضي لإنجاز أمور وقضاء حاجات، لا أراه إلا ليلاً، أضطر إلى النوم حتى يمكنني الاستيقاظ مبكرًا، يمضي ساعات الليل مع أمه وشقيقته، يتحدثون يتناجون، بعد انقضاء مدة، علمها عند مدبر الأكوان.

مدينة الغرباء
مطالع نيويوركية

جمال الغيطاني

ينتمي هذا الكتاب – من حيث التصنيف الأدبي – إلى أدب الرحلات، ولكن الكاتب الكبير / جمال الغيطاني يقدم هذا الفن الأدبي بأسلوب متميز يجعله متفردًا بين كثير ممن يكتبون في هذا الفن.

فبين قدرة فائقة على الحكي ولغة جمالية متميزة يأتي هذا الكتاب ليقدم لنا قطعة أدبية راقية دون أن تغفل الاهتمام بالمضمون؛ إذ يقابلنا هنا رؤية عميقة للولايات المتحدة الأمريكية على المستويات السياسية والاجتماعية والثقافية، وذلك من خلال مجموعة كبيرة من المواقف اليومية والمشاهدات الشخصية التي تقرب القارئ من المضمون دون أي إحساس بالملل أو الزهق.

باختصار يجمع هذا الكتاب بين جودة المضمون ورقي الأداء الفني، وهما غايتان نادرًا ما تجتمعان في كتاب واحد.

6 221133 343459

دار نهضة مصر للنشر
www.nahdetmisr.com